تركيب الندبة في الدرس النحوي العربي

أ/ كادة ليلى
قسم الأدب العربي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة محمد خيضر، بسكرة

ملخص:

يسعى هذا المقال إلى الوقوف على تركيب الندبة انطلاقا من جملة من الأسئلة لعل أهمها :

هل يعد تركيب الندبة من قبيل النداء المحمول على الإنشاء الطلبي، أم هل يستقل بتركيبه، ولا يحمل على غيره، فيكون لزاما دراسته على أساس كونه أسلوبا إنشائيا إفصاحيا لا طلبيا؟ وبم يتقوم وجود هذا التركيب؟ وما صوره؟ وما طبيعة الأحكام التي يمكن سوقها في بابه؟

Résumé:

Cet article tente de mettre l’accent sur la conception d’’’Elnoudba’’ à partir de tant questions
Importantes dont les plus importantes sont les suivantes :
Qu’est ce qu’on entend par cette conception ?
Quelles sont ses différentes formes?

- **توطئة:** المرء في غمرة حياته من المهد إلى اللحد بين لحظة تثلج الصدر وتغبطه، وأخرى تفجع القلب وتمزقه، فينزف دما ويعتصر ألما، وإنها الأبعد غورا والأعظم أثرا في النفس البشرية على الإطلاق ، إذ تترك بصماتها جلية على مساحة الشعور، وتخط أحرفها غير خفية بين تلافيف الذاكرة، مع ما يصحب ذلك كله من مشاعر دافقة طافحة تغمر صاحبها، فتزعزع كيانه، وتزلزل بنيانه، فلا يستطيع لها ردا، ولا يقوى على أن يضع لها حدا، ولا يجد من التنفيس عنها بدا، فيصطرخ حينا، ويذرف الدمع حينا آخر، وقد تنفسح على قدر طاقتها، وتبلغ مداها، فتضطره إلى الإفصاح عنها؛ إما بأصوات و صرخات نازفة، وإما بتراكيب واصفة، لعل أظهرها في هذا الباب تركيب الندبة الذي هو ألصق بالنساء لضعفهن، وقلة احتمالهن للشدائد والمحن.(1)

فيا ترى : بم يتقوم وجود هذا التركيب؟ وما صوره؟ وما طبيعة الأحكام التي يمكن سوقها في بابه؟

لعل من متطلبات الإفادة ضبط مصطلح الندبة على أوضاع النحويين، وفي سبيل درك هذا الغرض يكون أجدى تقصي أبعاد لفظه عند اللغويين.

2. الندبة على أوضاع اللغويين:

تسوق المعجمات اللغوية في مادة (ن/د/ب) مجموعة من المعاني التي تكاد تسبح في مدار المعنى الاصطلاحي، منها:

1- **الأثر:** فقد جاء (لسان العرب)(2) أن " الندبة أثر إذا لم يرتفع عن الجلد والجمع ندب وأنداب وندوب، كلهما جمع الجمع، وقيل: الندب واحد والجمع أنداب وندوب..." ، ومنه ترى النادب كأنه يذكر أثر من مضى(3).

2. **البكاء على الميت:** يقال: ندب فلان الميت، إذا بكاه وذكر محاسنه وعدد مناقبه.(4)

3. **الدعوة والترشيح لقيام بالأمر والحث عليه،**(5) ومنه فإن الندوب بلغة مكة هو الرسول.(6)

وليس بخفي أن هذه المعاني الثلاثة تتردد عند النجاة في سبيل ضبطهم مصطلح الندبة على نحو ما يتضح:

3. **الندبة على أوضاع النحويين:** الندبة في اصطلاح النحويين " نداء موجه إلى المتفجع عليه حقيقة أو حكما أو إلى المتوجع منه"(7)، وقد عبر سيبوية عن هذا المعنى بأن

المندوب مدعو على سبيل التفجع عليه.(8) وشرحه السيرافي بقوله: " الندبة تفجع ونوح من حزن وغم يلحق النادب على المندوب عند فقده، فيدعوه وإن كان يعلم أنه لا يجيب لإزالة الشدة التي لحقته لفقده...ولما كان المندوب ليس بحيث يسمع احتيج إلى غاية بعد الصوت، فألزموا أوله يا أو وا، وآخره الألف في الأكثر من الكلام؛ لأن الألف أبعد للصوت، وأمكن للمد"(9). وقيل: هي ضرب من النداء قوامه التفجع والتحسر على المتوجع له، أو إظهار الألم من المتوجع منه(10).

ومجموع هذه الحدود تنبئ بوضوح عن مدى أخذ دلالات هذا المصطلح بأعناق الدلالات اللغوية؛ ذلك أن الندبة في الأنموذج النحوي التراثي قائمة على أساس من التفجع والتوجع، وكلاهما داع إلى البكاء، وباعث عليه، وليس بخفي ما ينجر عنهما من آثار نفسية دفينة تترك بصماتها منقوشة على مساحة اللاشعور.

والمندوب – أيضا– مدعو عند النحويين على جهة كونه منادى. وبهذه المعاني الثلاثة تؤسس الدلالة اللغوية للدلالة المصطلحية. وحدَ الندبة بهذا الشكل قوامه درك القيمة الانفعالية لهذا التركيب، إلا في نقطة واحدة تكاد تعصف بالمفهوم، وتنحرف به عن وظيفته التعبيرية التي استخلص لها إلى وظيفة انتباهية هو منها براء.

فمن التعسف حمل هذا التركيب على محمل التركيب الندائي لمجرد الشراكة في البنية السطحية الظاهرة، فهذا نهج يصدر عن النظر إلى الأشكال لا إلى الوظائف التي هي أولى بالنظر والتتبع.

فمن المعلوم أن المعنى الوظيفي الواحد قد يصاغ بمبان متعددة، كما أن المبنى الواحد قد تتعدد وظيفته، ولا يترجح المقصود منه آنذاك، إلا بتضافر قرائن شتى تمحضه لأداء غرض دون آخر، يتم ذلك على مستوى الأبنية المفردة والمركبة على حد سواء؛ أي: على مستوى المفردات والتراكيب بلا استثناء.

الحقيقة أن النحاة أدركوا هذا التعدد، إلا أنهم حملوه على مبدأ الأصلية والفرعية؛ فجعلوا للتركيب الواحد معنى أصليا ومعاني أخرى هامشية فرعية، وحملوا الفرع على الأصل بطريقة تحكمية لا تبرأ من المزالق، ولا تخلو من الاعتراضات؛ لأنها تغمض الغرض الذي من أجله أنشئ التركيب، كما تضطرهم أحيانا إلى إقحام ما لم يعنه المتكلمون في سبيل تسوية صناعهم الإعرابية القائمة على أساس من هذا الغرض. ولعل الأمر يكون أدهى وأمر إذا تعلق بالنص القرآني الذي لا تأتيه الباطل من بين يديه ولا من

خلفه، فعجيب أن نتأوله بإقحام معان وألفاظ وإرضاء للقاعدة المصنوعة التي كان الأحق بها أن تكون تابعة للمنطوق لا متبوعته!

فالندبة في حقيقتها تؤسس لتركيب إفصاحي مستقل ومشحون بانفعالات المتكلم وفيض وجدانه، لا علاقة له – على مستوى الدرس الوظيفي– بالتركيب الندائي من قريب أو من بعيد، فلا جامع بينهما إلا الشكل الظاهر الذي لا يمكن إيلاؤه العناية في التصنيف والتحليل، فالأسلم أن نجعل الرائد في هذا المجال البنية العميقة التي هي مسرح المعاني.

ففي تركيب الندبة لا يكون المرء إزاء أداة نداء ولا منادى، بل يكون أمام أداة ندبة ومندوب، وشتان ما بين الأمرين من الوجهة الوظيفية. فالقيمة الفارقة بينهما هي تلك التي تفصل بين اللغة الفاعلة، واللغة الانفعالية؛ فالنداء مسرحه الأولى، والندبة مسرحها الثانية.

وقد أحس بعض النحويين بعدم وجاهة نداء المندوب؛ لأنه لم يطلب إقباله، فتأولوه على وجوه: فقيل: إن النادب لا ينادي منتظر جوابا، بل ليشهر ويشعر من حوله بمصيبته وتفجعه، وأنه وقع في أمر عظيم وخطب جسيم.(11) وقيل: إنه نداء مجازا لا حقيقة، فالقائل: يا محمداه، كأنه يقول له: أقبل فإني مشتاق إليك، وللقائل: واحزناه: احضر حتى يراك الناس فيعذروني فيك.(12)

ولا يضطرهم إلى هذا التأول داع ذو بال، فما أغناهم عنه لو أنهم انكفأوا إلى المعنى الوظيفي وجعلوا المبنى خدما له، ولاسيما أنهم أجازوا ندب المضاف لضمير المخاطب نحو: وا غلامك، مع منع ندائه!(13)

تحقيق القول أن الندبة تركيب غير إسنادي مفصح عن التفجع والتوجع، قوامه ركنان: أداة ندبة ومندوب لا تجمعهما علاقة إسنادية البتة، إلا على سبيل التوهم والتخيل.

4- الخصائص التركيبية للندبة:

قيل: للمندوب حكم المنادي سواء بسواء؛ يضم إن كان مفردا، وينصب إن كان مضافا أو شبيها به.(14)

ولما كانت الندبة تفجعا على الهالك وجب ألا يندب إلا بأعرف أسمائه وأشهرها حتى يكون له عذره في التفجع، فإذا ما عرفوه عذروه، وشاركوه في التفجع، فتهون بذلك مصيبة.(15) وفي شأن ذلك قال البصريون: " والمقصود بالندبة أن يظهر النادب

عذره في تفجعه على المندوب ليساعد في تفجعه فيحصل التأسي بذلك فيخف ما به من المصيبة، وذلك إنما يحصل بندبة المعرفة، لا بندية النكرة"(16)

في حين ، وبما أن المندوب لا يجيب، أجاز الكوفية ندبة النكرة والأسماء الموصولة نحو: واراكباه، وامن حفر بئر زمزماه، وحجتهم في ذلك أن الاسم النكرة يقرب من المعرفة بالإشارة، ومن ثمة جازت ندبته كالمعرفة. في حين أن الأسماء الموصولة معارف بصلاتها، كما أن أسماء الأعلام معارف، ومثلما يجوز ندبة أسماء الأعلام يجوز ندبة ما يشبهها.(17)

والمندوب هو المذكور بعد (يا) أو (وا) تفجعا لفقده، أو توجعا لكونه محل ألم أو سببه.(18) وعلامة الندبة (وا) او (يا) في أوله و(الألف) و (الهاء) في آخره(19)، فتذكر الواو أو الياء في أول الاسم، والألف والهاء في آخره، كقولنا: يا زيداه، ووعمراه، فالمندوب لا يسمع النادب؛ لذلك كان لزاما على هذا الأخير أن يضيف الألف والهاء مدا للصوت؛ ليكون في ذلك دلالة على حزن الفاقد. ويصح أن تعامله معاملة المنادى فلا تمده فتقول: يا عمر، ووامحمد.(20) والألف التي تلحق المندوب تفتح كل حركة قبلها مكسورة كانت أو مضمونة بحكم أنها تابعة للألف، أما ما قبل الالف فلا يكون إلا مفتوحا.(21)

فالتعبير عن مشاعر الأسى والحزن إزاء المندوب تفرض أن يمد المتكلم من صوته؛ لينفس عن مشاعره عسى أن يدرك منه السامع أنه حزين ومتألم. فالسياق والتنغيم والمشاعر عناصر رئيسة في هذا الأسلوب؛ إذ تساهم جميعها في إظهار دلالته التأثرية الانفعالية،ومن ثمة يكون مصدرا بلفظ (وا)، ونادرا ما تستعمل معه (يا) لأمن اللبس بالمنادي، كأن يندب ميتا اسمه زيد، وفي المجلس من اسمه زيد، فهذا لبس يمنع استعمال (يا) على الإطلاق.(22)

فلا شك أن في استطالة الصوت في آخر الاسم المندوب تعبيرا عن الحزن والألم الشديدين الذين يلحقان النادب إثر الفاجعة التي ألمت به، فينفجر إحساسه وانفعاله؛ ليدرك السامع أن المتكلم في أقصى درجات الحزن والألم.

أما ما يجوز ندبته فيقول ابن مالك:(23)

ويندب الموصول بالذي اشتهر كبئر زمزم يلي وا من حفر

وقد شرحه الأشموني فقال : " ويندب الموصول بالذي اشتهر اشتهارا بعينه ويرفع عنه الإبهام (كبئر زمزم) يلي (وامن حفر) في قولهم : وامن حفر بئر زمزماه، فإنه بمنزلة واعبد المطلباه"(24)

فلا يندب الاسم النكرة، ولا اسم الإشارة، ولا الموصول المبهم، ولا اسم الجنس المفرد، فهي غير دالة على المندوب دلالة تبين بها عذر النادب،(25) كما لا يندب الضمير.(26)

أما ندبة المثنى ويحي وما شابه ذلك من المقصور من غير إضافة، فتقتضي حذف ألف الأصل لالتقاء الساكنين، فتقول: وامثناه ووايحياه.(27)

أما إذا ذكرت مع المندوب صفة، نحو: وازيد الظريف، فتلكم مسألة أخلاقية بين البصرية والكوفية تتعلق- أساسا- بجواز استلحاق الندبة بالصفة؛ فالكوفيون يبيحون أن تلقى علامة الندبة على الصفة نحو قولنا: وازيد الظريفاه، وهو مذهب يونس بن حبيب البصري (ت 183هـ) وأبي الحسن ابن كيسان، وحجتهم في ذلك أن الندبة تلحق المضاف إليه نحو: واعبد زيداه، وغلام عمراه، فلما كانت الصفة مع الموصوف بمنزلة المضاف مع المضاف إليه، جاز أن تلحق الندبة الصفة، وقد استدلوا على ذلك بما يروى عن بعض العرب عندما ضاع منه جمجمتان، أي : قد حان، فقال: واجمجمتي الشاميتيناه، فألحق علامة الندبة الصفة.(28)

وفي حين يذهب البصريون إلى عدم جواز ذلك ،(29) فإذا ذكرت مع المندوب صفة، نحو: وازيد الظريف، لم يجز أن تقول: وازيد الظريفاه على مذهب الخليل؛ لأن الظريف غير منادى على غرار المضاف والمضاف إليه، فهما بمثابة اسم واحد نحو: وأمير المؤميناه، وواعبد قيساه، أما الصفة والموصوف فليسا كذلك.(30)

أما إذا كان آخر اللفظ ألفا، فقد أجاز الكوفيون قلبه ياء مع الحذف أيضا، وإبقاء التنوين للمنون، وفتحه أو كسره، في حين أجاز الفراء الكسر مع الحذف أيضا، فتقول: وازيداه، وازيدينه، ووازيدانيه، وواقام الرجلاه، وقام الرجلوه، وواعبد الملكاه، وواعبد الملكيه، وواموسياه، وواموسياه، ووازيدانيه، ووازيدوناه، ولا يجوز إثبات هذه الواو إلا في الوقف خلافا للفراء.(31)

في حين ذهب آخرون إلى أنه إذا كان آخر ما تلحقه ألف الندبة فتحة، لحقته ألف الندبة دون أي تغيير لها: فتقول لها: واغلام أحمداه. أما إذا كان سوى ذلك، وجب فتحه مخافة

اللبس مثل: واغلامهوه، واغلامكية وأصله: واغلامك بكسر الكاف ، واغلامه بضم الهاء، فيجب قلب ألف الندبة بعد الكسرة ياء وبعد الضمة واو؛ لأنه إذا ترك ذلك وحذفت الضمة والكسرة وأوتي بألف الندبة نحو: واغلامكاه، وواغلامهاه، لالتبس المندوب المضاف إلى ضمير المخاطبة بالمندوب المضاف إلى ضمير المخاطب، ولالتبس – أيضا – المندوب إلى ضمير الغائب بالمندوب المضاف إلى ضمير الغائبة.(32)

وقد علق إبراهيم السامرائي على هذا الكلام بأسلوب متهكم قائلا: " لا يخيل أن النحوي قد استقرى العربية فوجد هذه النماذج، وما أظن أن شيئا من هذا جرى على ألسنة أهل العربية. وكأن الناطق بالعربية على هذا المنطق النحوي مفكر يتعلم اللغة تعلما فهو ينتقل من تركيب لفظي إلى آخر خشية حدوث الالتباس"(33) بل كأن النحاة هنا منوطة بهم صناعة الكلام لا تفسيره، فهم ينشئون بعقولهم النماذج التركيبية التي لم تلكها الألسنة، ولم تتداولها الاستعمالات، حتى يخيل إليك أن هذا المشغل من وظيفة النحو لا الناطق العربي، وإن هذا إلا تحكم محض يفسد اللغة ويربكها، وحسبك دليلا أن بعض ما صنعوه يبعث على الضحك والسخرية لا على التفجع او التحسر، نحو: واغلاموه، فاللاحقة (هوه) قد تكون مطابقة لما يصدر عن الضاحك من أصوات ، يقول عبد السلام محمد هارون في هذا الصدد : " وقد اتخذ النحويون من هذا الباب مجالا للتخيل والتصور، فافترضوا أساليب وصورا أصدروا فتاوى دالة على سعة الخيال..."(34)

ويمكن سوق التغيرات التي تلحق ألف الندبة في المخطط التالي الذي أورده تمام حسان في "خلاصته"(35)

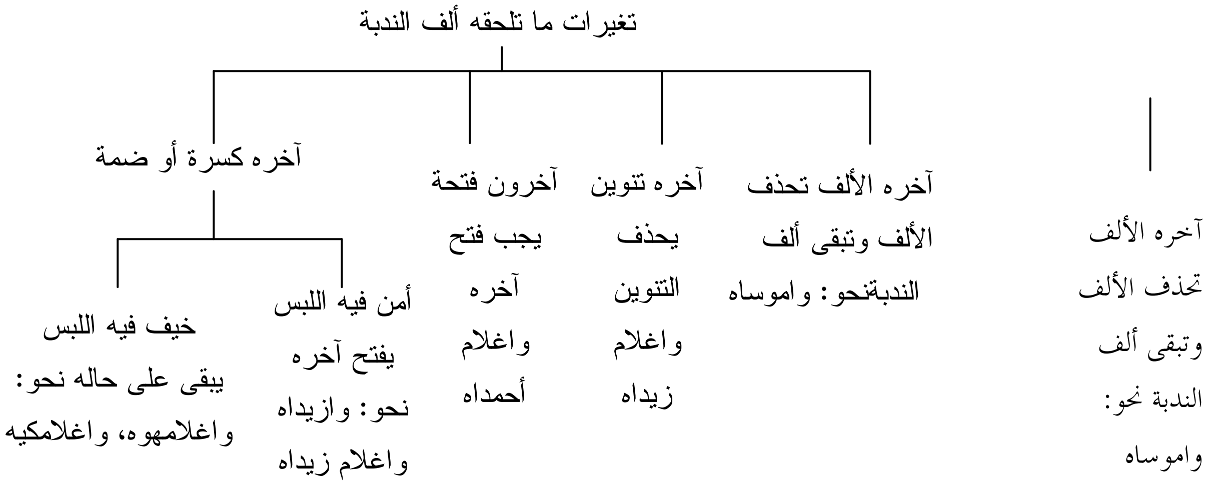
تغيرات ما تلحقه ألف الندبة
آخره الألف تحذف الألف وتبقى ألف الندبةنحو: واموساه
آخره تنوين يحذف التنوين واغلام زيداه
آخرون فتحة يجب فتح آخره واغلام أحمداه
آخره كسرة أو ضمة
أمن فيه اللبس يفتح آخره نحو: وازيداه واغلام زيداه
خيف فيه اللبس يبقى على حاله نحو: واغلامهوه، واغلامكيه
آخره الألف تحذف الألف وتبقى ألف الندبة نحو: واموساه

5- خاتمة: محصول الحديث أن الندبة تعبير عن مشاعر المتكلم وعواطفه اتجاه موقف صعب فهي ترتبط بسياق معين وتنغيم صوتي يناسب هذه المشاعر، وهو ما يجعلها تتماز عن النداء. فالندبة جملة إفصاحية تغلب عليها الوظيفة الانفعالية التأثرية؛ نظرا لما تتضمنه هذه الأساليب من طبيعة الإفصاح الذاتي عن مشاعر المتكلم وانفعالاته.

الهوامش:

---

(1) اللمع في العربية، ابن جني،-تحقيق : حامد المؤمن- عالم الكتب ومكتبة النهضة المصرية-ط2-1405ه 1985م، ص181؛ أسرار العربية، أبو البركات الأنباري- تحقيق: فخر صالح قدارة- دار الجيل -بيروت -- ط1، 1415ه 1995م، ص220.

(2) لسان العرب، ابن منظور، دار صابر للطباعة والنشر- بيروت، ط1، 1995م، 160/6.

(3) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، تحقيق: علي الشتيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع1414هـ 1994م. 425/2.

(4) المصدر نفسه؛ ومحيط المحيط، بطرس البستاني- مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1987، ص885.

(5) محيط المحيط، ص885.

(6) تاج العروس، 2/ 427.

(7) موسوعة الحروف العربية، إميل بديع يعقوب، دار الجيل، بيروت- لبنان، ط2، 1995م، ص482.

(8) الكتاب سيبوية ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون- دار الجيل- بيروت- ط1(د.ت)220/2.

(9) المصدر نفسه (الهامش).

(10) الأساليب الإنشائية في النحو العربي، عبد السلام هارون – مكتبة الخانجي- القاهرة- ط5-2001م، ص146.

(11) اللمع في العربية، ص181؛ وأسرار العربية، ص222.

(12) حاشية على شرح ابن عقيل، محمد الخضري علي – دار احياء الكتب العربية- (د.ت) ، ص81.

(13) المصدر نفسه.

(14) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي – تحقيق: عبد العال سالم مكرم- دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع- الكويت – 1399هـ 1979م، 66/3. ومناهج الصواب في علم الإعراب، ابن رحمة الحويزي- تحقيق: عبد الرحمان كريم

الامي- الدار العلمية الدولية للنشر والتوزيع ودار الثقافة للنشر والتوزيع- عمان الأردن – ط1- 2002م، ص166.

(15) اللمع في العربية، ص181؛ وأسرار العربية، ص220؛ والتبصرة والتذكرة، 362/1.

(16) الإنصاف في مسائل الخلاف،363/1.

(17) المصدر نفسه،362/1.

(18) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، ابن مالك – تحقيق: محمد كامل بركات- دار الكتاب العربي- القاهرة – 1387هـ. 1967م، ص185.

(19) أسرار العربية، ص220.

(20) الكتاب،220/2؛ وشرح ألفية ابن مالك، الأشموني – تهميش: حسن حمد- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان-ط1، 1419هـ 1998م، 57/3.

(21) دروس في المذاهب النحوية، عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992، ص57.

(22) همع الهوامع، 66/3؛ و الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ص146-147.

(23) الألفية، ص46.

(24) شرح الأشموني، 53/3.

(25) شرح ابن الناظم، ص420.

(26) الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ص147.

(27) التبصرة والتذكرة، 364/1.

(28) الإنصاف، 364/1-365.

(29) المصدر نفسه.

(30) التبصرة والتذكرة،364/1.

(31) الموفي في النحو الكوفي، صدر الدين الكنغرالي الاستانبولي- شرح: محمد بهجت البيطار- مطبوعات المجمنع العلمي – دمشق- (د.ت)، ص70.

(32) النحو العرببي: نقد وبناء، ص 114-115.

(33) المرجع نفسه، ص115.

(34) الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ص148.

(35) ص149.